ظل المعبد وانحنى وهو في شيء من الألم على شبح الشبوبية الماثل امامه وخيل له انه يرى عيني الشبوبية العميقتين وهي كأنها تسأله اسئلة صامتة وتقول له : « ماذا فعلت في حياتك يا بترو ؟ ... »

فأخذ بترو يطيل البحث عبثاً في ذاكرته ولم يحر جواباً فقالت له الشبوبية .

« قل انني عملت كذا وحققت من الامور كذا ... »

ولكن بترو لم ير انه قام بشيء من هذا بل صرف حياته في الحصول على قدر قليل من النقود وهو تاجر صغير دون أن يدخل قلبه سروراً او يستشعر الماً ولم يحمل قلبه ضغناً ولا داخله هوى وميلا . فرأى والحال هذه ان حياته كانت فارغة فظيعة

وترك المصلون الكنيسة ولبث بترو جاثياً باسطاً يديه لشبوبيته المفقودة ثم استولى عليه حزن عميق فانخرط في البكاء وهو يقول :

« حياتي .... حياتي كلها ... لقد فقدتها ... فماذا فعلت في حياتي ؟..

واستمر يبكي شبوبيته وحياته

نابليون في فونتينبلو

(من التاريخ)

قضى نابليون ليلة ٢٩ مارس سنة ١٨١٤ في مكان يبعد عن باريس ٦٠ ميلا وكان قضى الشهرين السابقين في الاستعداد المتواصل لاصلاح مركزه الحرج والتخلص من جيش العدو المتحد البالغ ثلاثمائة ألف جندي وكان في استطاعته مقابلته بفلول جيشه العظيم وبما انضم اليه من الجنود الجدد . وفوق هذا وذاك فقد علم أن أخاه يوسف هرب وان الجيوش المتحدة دخلت باريس ظافرة وقطعت الطريق أمامه

الى باريس وبعد امعان الفكرة قرر أن يقيم في فونتينبلو فقصد اليها في ٣١ مارس وبلغها عند الساعة السادسة صباحاً ونزل في منزل مؤلف من خمس غرف وفناء واسع ورافقه اليها الضابطان كانوفيل وكوربينو اللذان رويا أن اهالي المدينة لما رأوا نابليون يتجول في الشوارع بكوا بكاء مرا

و بعد عدة ساعات راحة تجددت قوى نابليون المنهوكة وعاد اليه نشاطه المعروف فجلس عند الظهر أمام المنضدة وجعل يرسم الخطة لجنوده وقال في نفسه : ان الحرب لم تنته بعد وأن باريس ليست بعيدة وأنه يستطيع دخولها اذا تمكن من محاربة كل جيش من الجيوش المتحدة على حدة . وفي أول أبريل طاف مواقع المارشال مارمون في ايسون وعند ما ودع المارشال قال له : « الى الملتقى يامارمون ! غدا سنزحف على باريس بأربعمائة مدفع ومائة الف جندي » وكان كل يوم يفد عليه جنود جدد فكان يرسلهم الى المعسكر العام

ثم استعرض الامبراطور جيشه و بعد نهاية الاستعراض استدعى اليه الضباط القدماء والصف ضباط والجنود وحياهم جميعاً فقابلوا تحيته بالهتاف العالي قائلين : فليحي الامبراطور ! الى باريس — الى باريس ! ولما مروا أمامه بنظام زحفوا مخترقين الحرج الامبراطوري الى المكان المعين لهم :

ولكن اذا كان الجنود والضباط قابلوه بالهتاف فان القواد والمارشالية قابلوا اقدامه هذا بالفتور والامتعاض . وتناسى هؤلاء الذين رفعهم نابليون من الحضيض الى قمة المجد ما كانوا عليه من قبل عند ما كانوا يلبسون الكبابيت الغليظة وقد اصبحوا الآن يرفلون ببرانس الحرير المطرزة بخيوط الذهب . هؤلاء قد انهكت الحرب قواهم فحاولوا الخروج عن طاعة امبراطورهم حتى ان واحدا منهم قال في اجتماع عقدوه « كفانا حرباً ونزالا — اننا اذا خضعنا لارادته الآن نكون بمثابة عبيد اذلاء وان الامبراطور لا يحق له ان يقود الجميع معه ويطرحهم في هاوية لا قرار لها انه يجب عليه أن يتحمل وحده عاقبة هذه الحرب الجنونية

وكان اصعب شيء على الامبراطور ما حدث في ٤ ابريل . فقد جاء اليه عند الساعة الحادية عشرة صباحاً جميع المارشالية وجلسوا في غرفة مائدته فدخل عليهم نابليون ووجهه مقطب عابس وتحت عينيه حلقات زرقاء فجلس الى المائدة وتناول طعام الفطور دون أن ينبس ببنت شفة ولازم المارشالية بدورهم الصمت التام . ومع هذا فانه كان يلقي في قلوبهم الرهبة والخوف لدرجة انهم يشعرون بوجوده انهم ضعفاء صغار ولا عجب في ذلك ! أليس انه هو الذي منحهم الالقاب الضخمة ؟؟.. والمجد المؤثل والثروة الواسعة فهم مدينون له بكل شيء ومع ذلك انهم عزموا على تركه للتمتع بالسلام والراحة وقد ادرك ذلك منهم وشعر بأنه مغلوب معهم على امره ورأى انه اصبح فريدا وحيدا لا يستطيع الاعتماد على احد منهم وبعد تفكير طويل عميق

اجاب نابليون طلب المارشالية الذي عرضوه عليه وهو التنازل عن عرش فرنسا حفظاً لسلامة البلاد . ورضي ان يوقع صك التنازل الذي وضعه المارشالية ونقحه بنفسه وهو ينصه « بما ان الدول المتحدة تعتقد ان نابليون هو العقبة الكؤود في سبيل ارجاع السلام الى اوربا فانه عملا بيمينه مستعد للتنازل عن عرش فرنسا والاقامة فيها اذا كان ذلك ضرورياً لخير الوطن بشرط حفظ حق العرش لابنه تحت وصاية الامبراطورة »

وقد دعوا الصالون الذي وقع فيه نابليون هذا الصك « غرفة التنازل » ولكن في نفس الوقت الذي كان فيه ملوك الدول المتحدة ينظرون نص الصك كان الجنرال مارمون يزحف بجيشه قاصداً مهاجمة جنود الأعداء ولهذا السبب طلب الملوك تنازل ابنه ايضاً عن العرش وبعد يومين احضر المارشالية له هذا الطلب الجديد فحاول تذكيرهم بالمجد الماضي الزاهر والانتصارات الباهرة ولكنه كان يخاطب حجارة ولما تأكد انه لا يمكنه اقناعهم خاطبهم بازدراء قائلا « انكم تطلبون الراحة ؟ حسناً انكم ستنالونها » ودنا من المنضدة ووقع عقد التنازل النهائي

حدث ذلك في ٦ ابريل وما وافى مساء ذلك اليوم حتى اصبح قصر نابليون خالياً خاوياً فان جميع كبار رجال الجيش والملكية الذين كانوا حوله غادروه وقصدوا باريس لينالوا حظهم من الحكومة الجديدة . وخان نابليون جلده ولم يستطع كظم غيظه وغضبه فقال لأمير كولينكور الذي لبث مخلصاً له : « يضايقني كثيرا : ان اولئك الناس الذين رفعت شأنهم واعليت مراكزهم قد سقطوا الى حضيض الذل والهوان . وماذا يظن الملوك المتحدون بكواكب مملكتي هؤلاء . ان شرف فرنسا الضائع المهان يقع على رأسي قبل كل شيء لأني اعتدت أن اجعل ذلك الشرف جوهراً فرداً لا يتجزأ »

ان نابليون الذي لم يعتد البطالة والخمول في حياته كلها جعل يجلس سحابة يومه أمام النافذة وقد شحب لون وجهه وكانت عيناه تقدح شرر الهم والغم وكان ظاهره يدل على الآلام الحادة التي كانت تمزق فؤاده .

وقد تم توقيع وثيقة التنازل في ١١ ابريل وقد تعهد نابليون بمقتضاها ان يسافر الى جزيرة ألبا وصرح له الملوك المتحدون ان يصطحب معه اليها ٤٠٠ جندي يختارهم بنفسه وانه لدى سفره يرافقه حتى المرفأ مندوبون من قبل الدول. أما نابليون فكان صامتاً مقطب الوجه مشغول الفكر . كأنه لم يهمه كل ما جرى

وفي ليلة ١٣ ابريل اضطجع الامبراطور في سريره عند الساعة العاشرة والنصف وترك خادمه كونستان وذهب الى غرفة نومه الواقعة فوق غرفة سيده ولكن الخادم بيلار حارس الامبراطور أيقظه عند نصف الليل وكان هذا مضطرباً مرتعشاً فقال لكونستان : أن جلالته أذاب شيئاً في كأس ماء وشربه وهو الآن في حالة خطر فقفز كونستان من سريره وهرول الى غرفة الامبراطور فأبصر عند أسفل سريره كيساً صغيراً من الجلد ورأى سيده قد ألصق وجهه بالوسادة حتى لا يسمع أنينه أحد فقال الامبراطور : يا كونستان! اني احتضر وسأموت فاسرع وادع كولينكور وايفان

فجاء اولا الدكتور ايفان ولما دنا من سرير الامبراطور قال هذا له :

— ألا تظن ان السكينة كانت كبيرة ؟

— لا أفهم ما تقول ياصاحب الجلالة وحقاً ان الدكتور ما كان يعلم ان الامبراطور يخفي دا ثماً معه كيساً مملوءاً سماً ليتناوله فيما اذا أسره الأعداء ثم دخل كولينكور ولما أبصر هذا الامبراطور اضطرب وانتفض ذلك انه رأى على وجهه صفرة الموت وشفتيه مسترخيتين وجبينه مبللا بالعرق البارد

فقال له الامبراطور : اني أموت يا كولينكور واني أعهد اليك الاهتمام بزوجتي وابني وحافظ على اسمي من العار والهوان . ان العيشة أصبحت لي بمثابة عبء ثقيل وكان كونستان قد أعد الشاي وقدم قدحاً منه الى الطبيب

فالتفت الطبيب الى كولينكور وقال له :

يا صاحب السعادة : اذا لم يتناول الامبراطور الشاي فاني غير مسؤول عن شيء . يجب أن يتقيأ وهو لا يريد تناول شيء فأرجوك اقناعه

فقدم كولينكور — وعيناه مغرورقتان بالدموع — قدح الشاي الى نابليون متوسلا اليه أن يشربه ، فرفض وقال : اتركوني وشأني . لا لزوم لشيء وقد خفت صوته وتلعثم لسانه وجمدت عيناه فانتهز كولينكور هذا الضعف والاسترخاء وصب الشاي في فمه وما استقر في جوفه حتى جعل يتقيأ . ثم سقاه الدكتور كأساً آخر وآخر حتى تقيأ كثيراً وبعد ذلك انقطع المغص وزالت التشنجات وعادت اعضاؤه الى مرونتها السابقة ونام على أثر ذلك وقضى كولينكور ليلته الى جانب سرير نابوليون الذي كان يهذي في نومه

وقبيل الفجر استيقظ وجعل يفرك وجهه بيده وقال : « ان الله لم يرد أن أموت »

ثم التفت الى خادمه كونستان وقال : « ان ضياع العرش لم يؤثر عليّ بقدر تأثير ما رأيته من انحطاط الناس وسفالتهم ونكرانهم الجميل ولم أجد راحة الا في الموت . وان ما تحملته في العشرين يوماً الاخيرة يعجز لساني عن وصفه »

نابليون على سرير الموت بعد تناوله السم

وعند الساعة الخامسة صباحاً قال لكولينكور « أيقنت في الايام الاخيرة بأنه لا بد أن يعتريني الجنون — والجنون هو آخر درجة من سقوط الانسان والموت خير من الجنون بألف مرة »

و بعد هذا نام ثانية وعند الساعة العاشرة نهض من سريره وارتدى ملابسه ولم يبد على وجهه أثر مما جرى

ولم تفته أيام تجربة نابليون عند هذا الحد فانه قضى الأيام التالية وحيداً فريداً في فونتينبلو فانه لم يزره أحد : لا زوجته ولا اخوته وجميع المارشالية سافروا دون أن يودعوه . وقد هرب الدكتور ايفان ايضاً بعد ما رأى من أهوال تلك الليلة وفرّ ايضاً الخادم كونستان . حتى ان خادمه المملوك رستم ذلك الكتاب الأمين الذي كان ينام دائماً أبداً عند باب غرفة نابليون هرب ايضاً ولم يبق أحد مخلصاً له سوى كولينكور و بعض رجال حرسه الخاص الذين شاركوه في جميع الآلام اللاحقة

وتعين يوم ٢٠ ابريل للسفر الى جزيرة ألبا وحضر مندوبو الدول وقد أخذ نابليون اهبته للسفر وجمع كتبه وكثيراً من الخرائط ووضعها في حقائب ملابسه وتقدم ثلاثة من القواد وأظهروا رغبتهم في مرافقته في سفره وهم : دروو و برتران وكامبرون وقد خلد هؤلاء لنفوسهم ذكراً مجيداً

وقد طلب الجنود بالحاح والحاف أن يصرح لهم بوداع امبراطورهم وقد أنالهم بغيتهم الجنرال بني

وعند ظهر ٢٠ ابريل خرج نابليون الى ميدان القصر الفسيح حيث وقف الجنود المشاة وبحارة الفرقة الجديدة . ووقفت الى جانب ذلك الميدان عربة جلس فيها مندوبو الدول الذين عهد اليهم مرافقته

وتسارع الى ميدان فيراري جميع الاهالي على اختلاف طبقاتهم . ولما وقف الامبراطور على رأس السلم صافح بعض الضباط الذين جاءوا لوداعه وتحيته لآخر مرة ولما وصل الى آخر السلم وقف لحظة وألقى نظرة على الميدان وكان مرتدياً بذلة قائد و بنطلوناً أزرق

ثم تقدم اليه الجنرال بني ليتلقى أوامره فمد اليه الامبراطور يده مسلماً وأمر الضباط أن يتقدموا اليه واحداً فواحدا وكان امام الجنود الرافعين بنادقهم ذلك العلم الشهير المكتوب عليه تواريخ المعارك العظيمة التي قام بها . وأشار الامبراطور انه يريد الكلام ، فسرت هزة عنيفة في نفوس الجنود وساد السكوت المطلق فقال :

« ايها الضباط والصف الضباط والجنود الامجاد . اني أودعكم : انني كنت في خلال العشرين سنة الماضية مسرورا منكم . وكنت دائما أجدكم في ذلك المكان الذي يدعو اليه الشرف ... »

ولما وصل الى هذا الحد من الكلام وكان يريد اتمامه وهو متجلد ولكن سامعيه لم يستطيعوا ضبط نفوسهم وشعورهم حتى ان الجنرال بتي الذي حاول التجلد والصبر تناسى

وداع نابليون للجنود والعلم

الأوامر التي اصدرها ورفع حسامه وصاح بأعلى صوته « فليحي الامبراطور »!! فردد هذا الهتاف الوف من الاصوات التي تصاعدت من قلوب مخلصة متألمة

فتأثر نابليون من ذلك واستطرد الكلام وقال : اني لا استطيع معانقتكم جميعا فاكتفي بمعانقة قائدكم ثم قال : هلمّ الي ايها القائد بّي فتقدم منه وعانقه طويلا ثم قال : قدموا اليّ العلم فقدموه وقبله نابليون ثلاثا ثم قال :

الوداع ! الوداع ! يا اولادي ! . . . وتخلص من الذين تكأكأوا حوله يقبلون يده ومن القائد بّي الذي كان يبكي بكاء عاليا وأسرع نحو العربة ودخلها وسارت به بسرعة نحو الغابة

وفي عام ١٨١٥ استلم القائد بّي العلم الذي ودّعه نابليون وعندما احضرت الحكومة الفرنسية آثار نابليون من جزيرة القديسة هيلانه رضي القائد بّي ان يفارق هذا العلم الذي كان شاهدا على مجده حيث وضعوه على قبر الامبراطور مع سيفه في دار الانفاليد وعلى عهد نابليون الثالث نقل الى متحف الملوك ثم أرجعوه الى أسرة القائد بّي وما زال محفوظا عندها الى اليوم (عن الروسية)

اغاني الشعب

نشيد الصناع

للشاعر العربي الكبير صاحب التوقيع

نحنُ اصحاب الحرف ليس يعنينا الترف
ولنا كلّ الشرف اننا نحيي المهن

* * *

نحن اهلٌ للبراعة في اساليب الصناعة
ولنا في كل صناعة نهضة على الزمن

* * *